

الباطنية وغلاة المتصوفة

(بدعهم ونأويلاهم من فصول كتاب الاعتصام للامام الشاطبي)

فصل

(ومنها) بناء طائفة منهم الظواهر الشرعية على تأويلات لا أمقل -
يدعون فيها انها هي المقصود والمراد ، لا ما يفهم العربي - مسندة عندهم الى
اصل لا يعقل . وذلك انهم - فيما ذكر العلماء - قوم ارادوا ابطال الشريعة
جملة وتفصيلاً ، وإلقاء ذلك فيما بين الناس لينحل الدين في ايديهم ، فلم
يمكنهم إلقاء ذلك صراحاً ، فإرد ذلك في وجوههم ، وتمتد اليهم ايدي
الحكام - فصرفوا ايمانهم الى التحال على ما قصدوا بأنواع من الخيل ،
من جهتها صرف الهم من الظواهر إحالة على أن لها بواطن هي المقصودة ،
وان الظواهر غير مرادة . فقالوا : كل ما ورد في الشرع من الظواهر
في التكاليف والحشر والنشر والامور الإلهية ، نهي امثلة ورموز الى بواطن .

*
*

فما زعموا في الشرعيات ان الجأبة مبادرة الداعي للمستجيب بأفشاء
سرّ اليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق . ومعنى القتل تجديد العهد على
من فعل ذلك . ومعنى مجامعة البهيمة مقابحة من لا عهد له ولم يؤد -
شيئاً من صدقة النجدي - وهي مائة وتسعة عشر درهماً عندهم - قالوا :
فلذلك اوجب الشرع القتل على الفاعل والمنعول به ، والا فالبهيمة متى
يجب القتل عليها ؟

والاحتلام ان يسبق اسائه الى افشاء السر في غير محله، فعليه الفسل،
أي تجديد المعاهدة. والطهر هو التبري من اعتقاد كل مذهب سوى
متابعة الامام. والتيمم الاخذ من المأذون الى أن يسعد بمشاهدة الداعي
والامام. والصيام هو الامساك عن كشف السر.

ولهم من هذا الافك كثير في الامور الالهية، وامور التكليف،
وامور الآخرة، وكله حوم على ابطال الشريعة جملة وتفصيلاً، اذ هم ثنوية
ودهرية وإباحية، منكرون للنبوّة والشرائع والحشر والنشر والجنة والنار
والملائكة، بل هم منكرون للربوبية. وهم المسمون بالباطنية. (١)

وربما تمسكوا بالحروف والاعداد بان الثقب في رأس الآدمي سبع،
والكواكب السيارة سبع، وايام الاسبوع سبع، فهذا يدل على أن دور
الأئمة سبعة، وبه يتم. وان الطوائف اربع، وفصول السنة اربع، فدل على
أن اصول الاربعة هي السابق والتالي الاكبران - عندهم - والناطق
والاساس. - وهما الامامان. - والبروج اثنا عشر، يدل على أن الحجج
اثنا عشر، وهم الدعاة، الى انواع من هذا القبل. وجميعها ليس فيه ما يقابل
بالرد، لأن كل طائفة من المبتدعة سوى هؤلاء، ربما يتمسكون
بشبهة تحتاج الى النظر فيها معهم. أما هؤلاء فقد دخلوا في الهديان الربقة،
وصاروا عرضة للمز، وضحكة للعالمين. وانما ينسبون هذه الاباطيل الى
الامام المعصوم الذي زعموه، وابطال الأئمة معلوم في كتب المتكلمين.

(١) اتسمت الباطنية الى عدة فرق يجمعهم القول بجعل ظواهر النصوص
غير مرادة، والذهاب في تأويلها مذاهب من التحكم لا تتفق مع اللغة في مجاز ولا
كناية. والقول بامام معصوم، وقد يسمونه باسم آخر، ويحملونه بعد ذلك إليها.
وأخر فرقهم الباطنية البهائية

ولكن لا بد من نكته مختصرة في الرد عليهم .

فلا يخلو ان يكون ذلك عندهم ما من جهة دعوى بالضرورة وهو محال، لأن الضروري هو ما يشترك فيه العقلاء علما وادراكا، وهذا ليس كذلك. واما من جهة الامام المعصوم بسماعهم منه لتلك التأويلات. فنقول لمن زعم ذلك: ما الذي دعاك الى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم سوى المعجزة؟ وليس لا مامك معجزة، فالقرآن يدل على ان المراد ظاهره، لا ما زعمت. فان قال: ظاهر القرآن رسول الى بواطن فيها الامام المعصوم ولم يفهمها الناس فتعلمناها منه. قيل لهم: من أي جهة تعلمتموها منه؟ أم شهادة قلبه بالعين؟ أو بسماع منه؟ ولا بد من الاستناد الى السماع بالاذن. فيقال: فامل لفظه ظاهر له باطن لم تفهمه، ولم يطلعك عليه، فلا يوثق بما فهمت من ظاهر لفظه. فان قال: صرح بالمعنى. وقال: ما ذكرته ظاهر لا رمز فيه، او: وادراد ظاهره. قيل له: وماذا عرفت قوله انه ظاهر لا رمز فيه، بل انه كما قال؟ اذ يمكن أن يكون له باطن لم تفهمه ايضا، حتى لو حلف بالطلاق الظاهر انه لم يقصد الا الظاهر، لاحتمال أن يكون في طلاقه رمز هو باطنه وليس مقتضى الظاهر. فان قال: ذلك يؤدي الى حسم باب التفهيم. قيل له: فانتم حسمتموه بالنسبة الى النبي صلى الله عليه وسلم، فان القرآن دأب على تقرير الوحدانية، والجنة، والنار، والحشر، والنشر، والا نبياء، والوحي، والملائكة، مؤكداً ذلك كله بالقسم. واتم تقولون: ان ظاهره غير مراد وان تحته رمزا. فان جاز ذلك عندهم بالنسبة الى النبي صلى الله عليه وسلم لمصلحة وسر له في الرمز، جاز بالنسبة الى معصومين أن يظهر لهم خلاف ما يضمرة لمصلحة وسر له فيه، وهذا لا يحيص لهم عنه.

*
* *

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: ينبغي أن يعرف الإنسان رتبة هذه الفرقة هي أخس من رتبة كل فرقة من فرق الضلال، إذ لا تجد فرقة تنقض مذهبها بنفس المذهب سوى هذه التي هي الباطنية، إذ مذهبها إبطال النظر، وتغيير الألفاظ عن موضوعها بدعوى الرمز، وكل ما يتصور أن تنطق به السنتهم فاما نظر أو نقل. أما النظر فقد ابطوه. وأما النقل فقد جوزوا أن يراد باللفظ غير موضوعه. فلا يبقى لهم معتصم. والتوفيق بيد الله.

*
* *

وذكر ابن العربي في العواصم مأخذاً آخر في الرد عليهم أسهل من هذا. وقال أنهم لا قبل لهم به - وهو أن يسلط عليهم في كل ما يدعونه السؤال «بكم» خاصة، فكل من وجهت عليه منهم سقط في يده. وحكى في ذلك حكاية ظريفة يحسن مودة باهاهنا. وتصور المذهب كاف في ظهور بطلانه، إلا أنه مع ظهور فساده وبعده عن الشرع قد اعتمده طوائف وبنوا عليه بدعافحشة (منها) مذهب المهدي المغربي. فانه عد نفسه الامام المنتظر، وانه معصوم حتى ان من شك في عصمته أو في أنه المهدي المنتظر فهو كافر.

وقد زعم ذووه انه ألف في الامامة كتاباً ذكر فيه أن الله استخلف آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً عليهم السلام، وان مدة الخلافة ثلاثون سنة، وبعد ذلك فرق واهواهوشع مطاع، وهوى متبع، وأعجاب كل ذي رأي برأيه، فلم يزل الامر على ذلك، والباطل ظاهر والحق

كامن ، واللم مرفوع - كما اخبر عليه الصلاة والسلام - والجمل ظاهر ، ولم يبق من الدين الا اسمه ، ولا من القرآن الا رسمه ، حتى جاء الله بالامام فاعاد الله به الدين - كما قال عليه الصلاة والسلام « بديء الدين غريبا وسيعود غريبا كما بديء فطوبى للغرباء » وقال : ان طائفتهم الغرباء ، زعمان غير برهان زائد على الدعوى . وقال في ذلك الكتاب : جاء الله بالمهدي ، وطاعته صافية نقية ، لم ير مثالا قبل ولا بعد ، وان به قامت السموات ، والارض به تقوم ، ولا ضده ، ولا مثل ، ولا ند . وكذب ، تعالى الله عن قوله . وهذا كما نزل احاديث الترمذي وابي داود في الفاطمي على نفسه وانه هو بلا شك .

واول اظهاره لذلك انه قام في اصحابه خطيبا فقال : الحمد لله الفعالم لما يريد ، القاضي لما يشاء ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على النبي البديء بالمهدي ، يملأ الارض قسطا وعدلا ، كما ملئت ظلما وجورا ، يبعثه الله اذا نسخ الحق بالباطل ، وازيل العدل بالجور ، مكانه بالمغرب الاقصى ، وزمانه آخر الأزمان ، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ظهر جور الامراء ، وامتلات الارض بالفساد ، وهذا آخر الزمان ، والاسم الاسم والنسب النسب والفعل الفعل . يشير الى ما جاء في احاديث الفاطمي .

فلما فرغ بادر اليه من اصحابه عشرة . فقالوا : هذه الصفة لا توجد الا فيك ، فانت المهدي . فبايعوه على ذلك . واحديث في دين الله احداثا كثيرة زيادة الى الاقرار باه المهدي المداوم ، والتخصيص بالمعصية . ثم وضع ذلك في الخطب ، وضرب في السكك ، بل كانت تلك الكلمة عندهم

مائة الشهادة . فمن لم يؤمن بها أو شك فيها ، فهو كافر كسائر الكفار .
 وشرع القتل في مواضع لم يضعه الشرع فيها . وهي نحو من ثمانية عشر
 موضعا . كترك امتثال امر من يستمع امره ، وترك حضور مواعظه
 ثلاث مرات ، والمداهنة اذا ظهرت في احد قتل ، واشياء كثيرة .
 وكان مذهبه البدعة الظاهرية ، ومع ذلك فابتدع اشياء ، كوجوه
 من الشوب ، اذ كانوا ينادون عند الصلاة «بما صاليت الاسلام» و « بقيام
 تا صاليت » و « سر دين » و « باردي » و « واصبح والله الحمد » وغيره .
 فجرى العمل بجميعها في زمان الموحدين . وبقي اكثرها بعد ما انقرضت
 دولتهم . حتى اني ادركت بنفسي في جامع غرناطة الاعظم الرضا عن الامام
 المعصوم . المهدي المعلوم ، الى ان ازيلت وبقيت اشياء كثيرة غفل
 عنها أو انقضت .

وقد كان السلطان ابو العلاء ادريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد
 المؤمن بن علي منهم . ظهر له قبيح ما هم عليه من هذه الابتداعات . فامر -
 حين استقر بمراكش - بخليته بازالة جميع ما ابتدع من قبله ، وكتب بذلك
 رسالة الى الاقطار يأمر فيها بتغيير تلك السنة ، ويوصي بتقوى الله
 والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وانه قد نبذ الباطل واظهر الحق ، وان
 لا مهدي الا عيسى ، وان ما ادعوه انه المهدي بدعة ازالها ، واسقط اسم من
 لا تثبت عصمته .

وذكر ان ابا المنصور هم بان يصدع بما به صدع ، وان يرفع الحرف
 الذي رفع ، فلم يساعده الاجل لذلك . ثم لما مات واستخلف ابنه ابو محمد
 عبد الواحد الملقب بالرشيدي ، وفد اليه جماعة من اهل ذلك المذهب المنسبين

بالموحدين ، ققتلوا منه في الذرورة والغارب ، وضمنوا على انفسهم الدخول تحت طاعته، والوقوف على قدم الخدمة بين يديه، والمدافعة عنه بما استطاعوا، لكن على شرط ذكر المهدي وتخصيصه بالعصمة في الخطبة والمحاطبات، ونقش اسمه الخاص في السكك، واعادة الدعاء بعد الصلاة، والنداء عليها « بتواصلت الاسلام » عند كمال الاذان و « بتقام تواصلت » وهي اقامة الصلاة، وما اشبه ذلك من « سودرين » و « وقادري » و « اصبح والله الحمد » وغير ذلك .

وقد كان الرشيد استمر على العمل بما رسم ابوه من ترك ذلك كله ، فلما اتدب الموحدون الى الطاعة اشترطوا اعادته ما ترك ، فاسعفوا فيه . فلما احتلوا منازلهم اياما ولم يعد شيء من تلك العوائد ، ساءت ظنونهم، وتوقعوا انقطاع ما هو عمدهم في دينهم ، وبلغ ذلك الرشيد ، فجدد تأنيدهم باعادتها .

قال المؤرخ : فيا لله ! ماذا بلغ من سرورهم وما كانوا فيه من الارتياح لسماح تلك الامور ، وانطلقت السنن بالدعاء على خليفتهم بالنصر والتأييد، وشملت الافراح فيهم الكبير والصغير. وهذا شأن صاحب البدعة، فلن يسر باعظم من انتشار بدعته واظهارها (ومن يرد الله فتنه فلن تملك له من الله شيئا) وهذا كله دائر على القول بالامامة والعصمة الذي هو رأى الشيعة .

فصل

(ومنها) رأى قوم التنالي في تعظيم شيوخهم ، حتى الحقوهم بما لا يستحقونه . فالقتصد منهم يزعم أنه لا ولي لله اعظم من فلان ، وربما

اغلقوا باب الولاية دون سائر الامة الا هذا المذكور . وهو باطل محض ، وبدعة فاحشة ، لأنه لا يمكن أن يبلغ المتأخرون ابدأً مبلغ المتقدمين . فخير القرون الذين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ، ثم الذين يلونهم ، وهكذا يكون الامر ابدأً الى قيام الساعة . فانوى ما كان اهل الاسلام في دينهم واعمالهم و يقينهم واحوالهم في اول الاسلام . ثم لا زال ينقص شيئاً فشيئاً الى آخر الدنيا . لكن لا يذهب الحق جملة ، بل لا بد من طائفة تقوم به وتمتده . وتمل بمقتضاه على حسبهم في ايمانهم . لا ما كان عليه الاولون من كل وجه ، لانه لو اتفق احد من المتأخرين وزن احد ذهباً ما بلغ مدّاً احد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نصيفه . واذا كان ذلك في المال فكذلك في سائر شعب الايمان ، بشهادة التجربة المادية .

ولما تقدم اول الكتاب انه لا يزال الدين في نقص فهو اصلي لا شك فيه . وهو عند اهل السنة والجماعة . فكيف يتقد بعد ذلك في انه ولي اهل الارض ؟ وليس في الامة ولي غيره ؟ لكن الجهل الغالب ، والغلو في التنظيم ، والتمصب للنحل ، يؤدي الى مثله أو أعظم منه . والمتوسط يزعم انه مساو للنبي صلى الله عليه وسلم ، الا انه لا يأتيه الوحي . بلغني هذا عن طائفة من الغالين في شيخهم ، الحاملين لطريقتهم في زعمهم ، نظير ما ادعاه بعض تلامذة الحلاج في شيخهم على الاقتصاد منهم فيه . والغالي^(١) يزعم فيه أشنع من هذا ، كما ادعى اصحاب الحلاج في الحلاج .

(١) نص النسخة التي نطبع عنها « والغالي »

وقد حدثني بعض الشيوخ أهل العدالة والصدق في النقل انه قال :
 اقيت زمانا في بعض القرى البادية ، وفيها من هذه الطائفة المشار اليها
 كثير - قال - فخرجت يوما من منزلي لبعض شأني ، فرأيت رجلين منهم
 قاعدين ، فاتهمتهما يتحدتان في بعض فروع طريقتهما ، فقربت منهما
 على استخفاء لأسمع من كلامهم ، - إذ من شأنهم الاستخفاء بأسرارهم -
 فتحدثا في شيخهم وعظم منزلته ، وانه لا أحد في الدنيا مثله ، وطربا لهذه
 المقابلة طربا عظيما ، ثم قال أحدهما للآخر : أتحب الحق ؟ هو النبي . قال :
 نعم هذا هو الحق . قال المخبر : فقلت من ذلك المكان فأرا أن يصيبني
 معهم قارعة .

وهذا نمط الشيعة الامامية . ولولا الغلو في الدين والتكالب على نصر
 المذهب ، والتهاك في محبة المبتدع ، - لما وسع ذلك عقل احد ، ولكن
 النبي صلى الله عليه وسلم قال « لتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر
 وذراعا بذراع » الحديث . فمؤلا غلوا كما غات النصارى في عيسى عليه
 السلام . حيث قالوا : ان الله هو المسيح ابن مريم . - فقال : الله تعالى
 (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق . ولا تتبعوا أهواء قوم قد
 ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل) وفي الحديث « لا
 تطروني كما طرت النصارى عيسى بن مريم ، ولكن قولوا عبد الله ورسوله » .
 ومن تأمل هذه الاصناف وجد لها من البدع في فروع الشريعة
 كثيرا ، لأن البدعة اذا دخلت في الاصل سهلت مداخلتها القروع .

فصل

واضعف هؤلاء احتجاجا قوم استندوا في أخذ الاعمال إلى المقامات ، وأقبلوا وأعرضوا بسببها ، فيقولون : رأينا فلانا الرجل الصالح ، فقال لنا : اتركوا كذا ، واعملوا كذا . ويتفق مثل هذا كثيرا للمتوسمين ^(١) برسم التصوف ، وربما قال بعضهم : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقال لي كذا وامرني بكذا ، فيعمل بها ويترك بها معرضا عن الحدود الموضوعه في الشريعة ، وهو خطأ ، لأن الرؤيا من غير الانبياء لا يحكم بها شرعا على حال الا ان تعرض على ما في ايدينا من الاحكام الشرعية ، فان سوغتها عمل بمقتضاها ، والا وجب تركها والاعراض عنها ، وانما فائدتها البشارة أو النذارة خاصة . وأما استفادة الاحكام فلا . كما يحكى عن الكتاني رحمه الله قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت : ادع الله ان لا يميت قلبي . فقال « قل كل يوم اربعين مرة يا حي يا قيوم ، لا اله الا انت » فهذا كلام حسن لا اشكال في صحته ، وكون الذكر يحمي القلب صحيح شرعا . وفائدة الرؤيا التنبيه على الخير ، وهو من ناحية البشارة . وانما يبقى الكلام في التحديد بالاربعين ، واذا لم يوجد على اللزوم استقام .

وعن ابي يزيد البسطامي رحمه الله ، قال : رأيت ربي في المنام ، فقلت : كيف الطريق اليك ؟ فقال : اترك نفسك وتعال . وشأن هذا الكلام من الشرع موجود ، فالعمل بمقتضاه صحيح ، لانه كالتنبيه لموضع الدليل ،

(١) تمس بالشيء احتك به ، وتمس بيديه تلعب به وعبت كما يعبت البعير ، والمراد بهم هنا المتقدمون للصوفية في رسومهم الظاهرة دون اخلاقهم واعمالهم

لان ترك النفس معناه ترك هواها باطلاق ، والوقوف على قدم العبودية . والآيات تدل على هذا المعنى ، كقوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى) وما أشبه ذلك . فلو رأى في النوم قائلاً يقول : ان فلانا سرق فأقطمه ، أو عالم فأسأله ، أو اعمل بما يقول لك ، أو فلان زنى فحدّه ، وما أشبه ذلك ، لم يصح له العمل حتى يقوم له الشاهد في اليقظة ، والا كان عاملاً بغير شريعة ، اذ ليس بمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحي .

ولا يقال : إن الرؤيا من اجزاء النبوة ، فلا ينبغي أن تهمل . وأيضاً إن المخبر في المنام قد يكون النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قد قال « من رأى في النوم فقد رأى حقاً ، فإن الشيطان لا يمثّل بي » واذا كان : . فأخباره في النوم كإخباره في اليقظة .

لانا نقول : ان كانت الرؤيا من اجزاء النبوة فليست اليانا من كمال الوحي ، بل جزء من اجزائه ، والجزء لا يقوم مقام الكل في جميع الوجوه ، بل انما يقوم مقامه في بعض الوجوه ، وقد صرفت الى جهة البشارة والندارة ، وفيها كاف^(١)

وأيضاً فإن الرؤيا التي هي جزء من اجزاء النبوة من شرطها ان تكون سالحة من الرجل الصالح ، وحصول الشروط مما ينظر فيه ، فقد تتوفر ، وقد لا تتوفر .

وأيضاً فهي منقسمة الى الحليم ، وهو من الشيطان ، والى حديث النفس ، وقد تكون سبب هيجان بعض اخلاط ، فتمت تعين الصالحة حتى

(١) كذا واصل في الكلام حذفاً

يحكم بها وتترك غير الصالحة ؟

ويلزم أيضاً على ذلك ان يكون تجديد وحي بحكم بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو منهي عنه بالاجماع .

يحكي ان شريك بن عبد الله القاضي دخل على المهدي ، فلما رآه قال :
علي بالسيف والنطع . قال : ولم يا امير المؤمنين ؟ قال : رأيت في منامي
كأنك تطأ بساطي وأنت ممرض عني ، فقصدت رؤياي على من غيرها ،
فقال لي : يظهر لك طاعة ويضمر معصية . فقال له شريك : والله ما رؤياك
برؤيا ابراهيم الخليل عليه السلام ، ولا معبرك يوسف الصديق عليه
السلام ، فبالاحلام الكاذبة تضرب اعناق المؤمنين ؟ فاستعجب المهدي ،
وقال : اخرج عني . ثم صرفه وابعده .

وحكى الغزالي عن بعض الأئمة انه افتي بوجوب قتل رجل يقول
بخلق القرآن ، فروجع فيه ، فاستدل بان رجلاً رأى في منامه ابليس قد
اجتاز باب المدينة ولم يدخلها ، فقيل : هل دخلها ؟ فقال : اغتاني عن
دخولها رجل يقول بخلق القرآن ، فقام ذلك الرجل فقال : لو افتي ابليس
بوجوب قتلي في اليقظة هل تقلدونه في فتواه ؟ فقالوا : لا ! فقال : قوله
في المنام لا يزيد على قوله في اليقظة .

**

وأما الرؤيا التي يخبر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الرائي بالحكم .
فلا بد من النظر فيها ايضاً ، لأنه اذا اخبر بحكم موافق لشريعته ، فالحكم
بما استقر ، وان اخبر بمخالف ، فيحال ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا ينسخ
بعد موته شريعته المستقرة في حياته ، لان الدين لا يتوقف استقراره

(الناج ٤ م ١٧) حديث « من رأى في النوم » وتفسير يقين رؤيته ٢٨٥

بعد موته على حصول المرأى النومية ، لأن ذلك باطل بالاجماع . فمن رأى شيئاً من ذلك فلا عمل عليه ، وعند ذلك نقول : ان رؤياه غير صحيحة . اذ لو رآه حقاً لم يخبره بما يخالف الشرع .

لكن يبقى النظر في معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من رأى في النوم فقد رأى » وفيه تأويلان : احدهما ما ذكره ابن رشد اذ سئل عن حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة في قضية ، فلما نام الحاكم ذكر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ما تحكم بهذه الشهادة ؟ فانها باطلة . فاجاب بانه لا يحل له ان يترك العمل بتلك الشهادة ، لان ذلك ابطال لأحكام الشريعة بالرؤيا ، وذلك باطل لا يصح أن يعتقد ، اذ لا يعلم الغيب من ناحيتها الا الانبياء الذين رؤياهم وحي ، ومن سواهم انما رؤياهم جزء من ستة واربعين جزءاً من النبوة .

ثم قال : وليس معنى قوله « من رأى فقد رأى حقاً » ان كل من رأى في منامه انه رآه فقد رآه حقيقة . بدليل ان الرأى قد يراه مرات على صور مختلفة ، ويراه الرأى على صفة ، وغيره على صفة اخرى . ولا يجوز أن تختلف صور النبي صلى الله عليه ولا صفاته . وانما معنى الحديث « من رأى على صورتي التي خلقت عليها . فقد رأى » اذ لا يتمثل الشيطان بي « اذ لم يقل : من رأى انه رأى ، فقد رأى . وإنما قال : من رأى فقد رأى . وانى لهذا الرأى الذي رأى انه رآه على صورته انه رآه عليها ؟ وان ظن انه رآه ، ما لم يعلم ان تلك الصورة صورته بعينها ، وهذا ما لا طريق لأحد الى معرفته .

فهذا ما نقل عن ابن رشد . وحاصله يرجع الى ان المرئى قد يكون

غير النبي صلى الله عليه وسلم ، وان اعتقد الرائي انه هو

والتأويل الثاني يقوله علماء التعمير : ان الشيطان قد يأتي النائم في صورة ما من معارف الرائي وغيرهم . فيشير له الى رجل آخر : هذا فلان النبي ، وهذا الملك الفلاني ، أو من اشبه هؤلاء ممن لا يتمثل الشيطان به . فيوقع اللبس على الرائي بذلك وله علامة عندهم . واذا كان كذلك امكن ان يكلمه المشار اليه بالامر والنهي غير الموافقين للشرع ، فيظن الرائي انه من قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يكون كذلك ، فلا يوثق بما يقول له أو يأمر أو ينهى .

وما اخرى ^(١) هذا الضرب أن يكون الامر أو النهي فيه مخالفاً لكمال الاول ، حقيق بان يكون فيه موافقا ، وعند ذلك لا يبقى في المسئلة اشكال . نعم لا يحكم بمجرد الرؤيا حتى يعرضها على العلم ، لا يمكن اختلاط احد القسمين بالآخر . وعلى الجملة فلا يستدل بالرؤيا في الاحكام الاضعيف المنة . نعم يأتي المرئي تأنيساً وبشارة وندارة خاصة ، بحيث لا يقطعون بمقتضاها حكماً ، ولا يبنون عليها اصلاً ، وهو الاعتدال في اخذها ، حسبما فهم من الشرع فيها ، والله اعلم .

فصل

وقد رأينا أن نختم الكلام في الباب بفصل جمع جملة من الاستدلالات المتقدمة ، وغيرها في معناها ، وفيه من نكت هذا الكتاب جملة اخرى ، فهو مما يحتاج اليه بحسب الوقت والحال ، وان كان فيه طول ولكنه

(١) نص النسخة التي نطبع عنها « اجري » بالجم وهو غلط

يخدم ما نحن فيه ان شاء الله تعالى .

وذلك انه وقع السؤال عن قوم يتسمون بالفقراء ، يزعمون انهم سلكوا طريق الصوفية ، فيجتمعون في بعض الليالي ويأخذون في الذكر الجمهوري على صوت واحد ، ثم في الفناء والرقص ، الى آخر الليل ، ويحضر معهم بعض المتسمين بالفقهاء ، يترسمون برسم الشيوخ الهداة الى سلوك ذلك الطريق : هل هذا العمل صحيح في الشرع أم لا ؟

فوقع الجواب بان ذلك كله من البدع المحدثات ، المخالفة لطريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطريقة اصحابه والتابعين لهم باحسان ، فنعى الله بذلك من شاء من خلقه .

ثم ان الجواب وصل الى بعض البلدان ، فقامت القيامة على العاملين بتلك البدع ، وخافوا اندراس طريقتهم ، وانقطاع اكلامهم بها ، فارادوا الانتصار لأنفسهم ، بعد أن راموا ذلك بالانتساب الى شيوخ الصوفية الذين ثبتت فضيلتهم ، واشتهرت في الاقطاع الى الله ، والعمل بالسنة طريقتهم ، فلم يستقر لهم الاستدلال ، لكونهم على ضد ما كان عليه القوم ، فانهم كانوا بنواختهم على ثلاثة اصول : الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في الاخلاق والافعال ، واك كل الحلال ، واخلاص النية في جميع الاعمال ، وهؤلاء قد خالفوهم في هذه الاصول ، فلا يمكنهم الدخول تحت ترجمتهم وكان من قدر الله ان بعض الناس سأل بعض شيوخ الوقت في مسألة تشبه هذه ، لكن حسن ظاهرها بحيث يكاد باطنها يخفي على غير المتأمل . فاجاب عفا الله عنه على مقتضى ظاهرها من غير تعرض الى ما هم عليه من البدع والضلالات ، ولما سمع بعضهم بهذا الجواب ارسل

به الى بلدة اخرى ، فأتى به فرحل الى غير بلده ، وشهر في شيعته أن بيده حجة لطريقتهم تقهر كل حجة ، وأنه طالب للمناظرة فيها ، فدعي لذلك فلم يقم فيه ولا قعد ، غير أنه قال : ان هذه حجتي ، وألقي بالبطاقة التي بخط الحبيب ، وكان هو ومجيبه ^(١) وأشياعه يطايرون بها فرحاً ، فوصلت المسئلة الى غرناطة ، وطلب من الجميع النظر فيها . فلم يسمع احد له قوة على النظر فيها الا اول ^(٢) أن يظهر وجه الصواب فيها الذي يدان الله به لأنه من النصيحة التي هي الدين القويم ، والصراط المستقيم

ونص خلاصة السؤال : ما يقول الشيخ فلان في جماعة من المسلمين يجتمعون في رباط على ضفة البحر في الليالي الفاضلة ، يقرؤون جزءا من القرآن ، ويستمعون من كتب الوعظ والرقائق ما امكن في الوقت ، ويذكرون الله بأنواع التهليل والتسبيح والتقديس ، ثم يقوم من بينهم قوال يذكر شيئاً في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبقى من السماع ما تروق النفس اليه وتشتاق سماعه من صفات الصالحين ، وذكر آلاء الله ونعمائه ، ويشوقهم بذكر المنازل الحجازية ، والمعاهد النبوية ، فيتواجدون اشتياقاً لذلك ، ثم يأكلون ما حضر من الطعام ، ويحمدون الله تعالى ، ويرددون الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبتهلون بالادعية الى الله في صلاح أمورهم ، ويدعون للمسلمين ولائهم ويفترقون .

فهل يجوز اجتماعهم على ما ذكر ؟ أم يمتنعون وينكر عليهم ؟ ومن دعاهم من المحبين الى منزله بتصد التبرك ، هل يجيبون دعوته ويجتمعون على

(١) كذا ولعلها « ومحبته » أو « ومحبوه » (٢) لفظ الاول لا يظهر له معنى هنا

والظاهر ان المقام مقام الاستثناء وان العبارة ربما دخل فيها التحريف والسقط

الوجه المذكور أم لا؟

فاجاب بما محصوله : مجالس تلاوة القرآن وذكر الله هي رياض الجنة . ثم أتى بالشواهد على طلب ذكر الله . واما الانشادات الشعرية . فانما الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، وفي القرآن في شعراء الاسلام (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا) وذلك ان حسان ابن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعبا لما سمعوا قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون) الآيات . بكوا عند سماعها فنزل الاستثناء ، وقد أشد الشعر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورقت نفسه الكريمة وذرفت عيناه لأبيات اخت النضر ، لما طبع عليه من الرأفة والرحمة . واما التواجد عند السماع ، فهو في الاصل رقة النفس ، واضطراب القلب ، فيتأثر الظاهر بتأثر الباطن . قال الله تعالى (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أي اضطربت رغبا أو رهبا . وعن اضطراب القلب يحصل اضطراب الجسم ، قال الله تعالى (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا) الآية . وقال (ففروا الى الله) فانما التواجد رقة نفسية ، وهزة تليسية ، ونهضة روحانية . وهذا هو التواجد عن وجد ، ولا يسمع فيه تكبير من الشرع . وذكر السلمي انه كان يستدل بهذه الآية على حركة الوجد في وقت السماع . وهي (وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا) الآية . وكان يقول : ان القلوب مربوطة باللكوت ، حركتها انوار الذاكر ، وما يرد عليها من فنون السماع .

ووراء هذا تواجد لاعن وجد ، فهو مناط الذم ، لمخالفة ما ظاهر

لما بطن . وقد يخرّب^(١) فيه الأمر عند القصد لاستنهاض العزائم ، واعمال الحركة في يقظة القلب النائم « يا أيها الناس ابكوا فان لم تبكوا فبناكوا »^(٢) ولكن شتان ما بينها .

و اما من دعا طائفة الى منزله فتجابه دعوته ، وله في ذلك قصده ونيته . فهذا ما ظهر تقيده على مقتضى الظاهر ، والله يتولى السرائر ، وانما الاعمال بالنيات . انتهى ما قيده .

فكان مما ظهر لي في هذا الجواب : ان ما ذكره في مجالس الذكر صحيح اذا كان على حسب ما اجتمع عليه السلف الصالح ، فانهم كانوا يجتمعون لتدارس القرآن فيما بينهم ، حتى يتعلم بعضهم من بعض ، ويأخذ بعضهم من بعض ، فهو مجلس من مجالس الذكر التي جاء في مثاها من حديث ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفت بهم الملائكة ، وذكروهم الله فيمن عنده » وهو الذي فيه الصحابة رضي الله تعالى عنهم من الاجتماع على تلاوة كلام الله .

وكذلك الاجتماع على الذكر فانه اجتماع على ذكر الله . ففي رواية اخرى انه قال « لا يقعد قوم يذكرون الله الا حفتهم الملائكة » الحديث المذكور . لا الاجتماع للذكر على صوت واحد ، واذا اجتمع القوم على التذكر لنعم الله ، أو التذاكر في العلم ان كانوا علماء ، أو كان فيهم عالم فجلس

(١) لعله « يعزب » (٢) لعله أراد حديث « أتلاوا القرآن وابكوا ، فان لم تبكوا فبناكوا » فاقبسه بالمعنى ، وهو في سنن ابن ماجه من حديث سعد ابن ابي وقاص بسند جيد

اليه متعلمون ، أو اجتموا يذكر بعضهم بعضاً بالعمل بطاعة الله والبعده عن معصيته . وما اشبه ذلك مما كان يعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم في اصحابه ، وعمل به الصحابة والتابعون . فهذه المجالس كلها مجالس ذكر وهي التي جاء فيها من الاجر ما جاء .

كما يحكى عن ابن ابي ليلى انه سئل عن القصص . فقال : ادركت اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يجلسون ويحدث هذا بما سمع وهذا بما سمع . فاما أن يجلسوا خطيباً فلا . وكان كالذى زراه معمولاً به في المساجد من اجتماع الطلبة على معلم يقرئهم القرآن أو علماً من العلوم الشرعية . أو تجتمع اليه العامة فيعلمهم امر دينهم ، ويذكرهم بأسه ، ويبين لهم سنة نبيهم ليعملوا بها ، ويبين لهم المحدثات التي هي ضلالة ليحذروا منها ، ويتجنبوا مواطنها والعمل بها .

فهذه مجالس الذكر على الحقيقة وهي التي حرّمها الله أهل البدع من هؤلاء الفقراء الذين زعموا أنهم سلكوا طريق التصوف . وقل ما نجد منهم من يحسن قراءة الفاتحة في الصلاة الا على اللحن ، فضلاً عن غيرها ، ولا يعرف كيف يتعبد ، ولا كيف يستنجي أو يتوضأ أو يغتسل من الجنابة . وكيف يعلمون ذلك وهم قد حرّموا مجالس الذكر التي تنشأها الرحمة ، وتنزل فيها السكينة ، وتحف بها الملائكة ؟ فبانطاس هذا النور عنهم ضلوا ، فاقتدوا بجهال امثالهم ، واخذوا يقرؤن الاحاديث النبوية والآيات القرآنية فينزلونها على آرائهم ، لا على ما قال اهل العلم فيها . فخرجوا عن الصراط المستقيم ، الى ان يجتمعوا ويقرأ احدهم شيئاً من القرآن يكون حسن الصوت طيب النغمة جيد التلحين تشبه قراءته الغناء المنسوم ، ثم يقولون

تعالوا نذكر الله . فيرفعون اصواتهم يشون ذلك الذكر مداولة ، طائفة في جهة ، وطائفة في جهة اخرى ، على صوت واحد يشبه الغناء ، ويزعمون ان هذا من مجالس الذكر المندوب اليها ، وكذبوا . فانه لو كان حقاً لكان السلف الصالح اولى بادراكه وفهمه والعمل به ، والا فآين في الكتاب أو في السنة الاجتماع للذكر على صوت واحد جهراً عالياً ؟ وقد قال تعالى (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية انه لا يحب المعتدين) والمعتدون في التفسير هم الرافعون اصواتهم بالدعاء

وعن ابي موسى قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فاجل الناس يجهرون بالكبير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « اربعوا على انفسكم ، انكم لا تدعون اصم ولا غائباً ، انكم تدعون سميماً قريباً ، وهو ممك » وهذا الحديث من تمام تفسير الآية ، ولم يكونوا رضي الله عنهم يكبرون على صوت واحد ، ولكنه نهى عن رفع الصوت ليكونوا للآية ممثلين . وقد جاء عن السلف أيضاً النهي عن الاجتماع على الذكر ، والدعاء بالهيئة التي يجتمع عليها هؤلاء المبتدعون . وجاء عنهم النهي عن المساجد المتخذة لذلك ، وهي الربط التي يسمونها بالصفة . ذكر من ذلك ابن وهب وابن وضاح وغيرهما ما فيه كفاية لمن وفقه الله .

فالخاص من هؤلاء انهم حسنوا الظن بانهم فيما هم عليه مصيبون ، واساؤوا الظن بالسلف الصالح اهل العمل الراجح الصريح ، واهل الدين الصحيح . ثم لما طالبهم لسان الحال بالحجة اخذوا كلام المحجب بهم لا يعلمون ، وقولوه ما لا يرضى به العلماء ، وقد بين ذلك في كلام آخر اذ شئ عن ذكر فقراء زماننا ، فاجاب بان مجالس الذكر المذكورة في الاحاديث انها

هي التي تلى^(١) فيها القرآن ، والتي يُتلم فيها العلم والدين ، والتي أتمر بالعلم والتذكير بالآخرة والجنة والنار . كما جالس سفيان الثوري والحسن وابن سيرين ، واضرابهم .

اما مجالس الذكر اللساني فقد صرح بها في حديث الملائكة السياحين ، لكن لم يذكر فيه جهراً بالكلمات ، ولا رفع اصوات ، وكذلك غيره . لكن الاصل المشروع اعلان الفرائض واخفاء النوافل ، واتى بالآية وبقوله تعالى (اذ نادى ربه نداء خفياً) وبحديث « اربعوا على انفسكم » - قال - : وفقراء الوقت قد تخيروا بآيات ، وتميزوا باصوات ، هي الى الاعتداء ، اقرب منها الى الاقتداء ، وطريقتهم الى اتخاذها مأكلة وصناعة ، اقرب منها الى اعتدادها قرينة وطاعة .

انتهى معناه على اختصار اكثر الشواهد . وهي دليل على ان فتواه المحتج بها ليس معناها ما رام هؤلاء المبتدعة . فانه سئل في هذه عن فقراء الوقت ، فاجاب بدمهم ، وان حديث النبي صلى الله عليه وسلم لا يتناول عمليهم . وفي الاولى انما سئل عن قوم يجتمعون لقراءة القرآن ، أو لذكر الله . وهذا السؤال يصدق عن قوم يجتمعون مثلاً في المسجد فيذكرون الله ، كل واحد منهم في نفسه أو يتلو القرآن نفسه ، كما يصدق على مجالس المعلمين والمتعلمين ، وما اشبه ذلك مما تقدم التنبيه عليه ، فلا يسمه وغيره من الملباء الا ان يذكر محاسن ذلك والثواب عليه ، فلما سئل عن اهل البدع في الذكر والتلاوة بين ما ينبغي أن يعتمد عليه الموفق ، ولا توفيق الا بالله العلي العظيم . اه المراد منه

(١) في الاصل « بختلا » هكذا ، فصحتها ناسخ الورق الذي نطبع عنه فجعلها « بختلى » وكلاهما غلط

فصل^{*}

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين (منزلة التوكل)

قال الله تعالى (ونلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين - وقال - وعلى الله فليتوكل المؤمنون - وقال - ومن يتوكل على الله فهو حسبه - وقال عن اوليائه - ربنا عليك توكلنا وابليك انبنا وابليك المصير - وقال - قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا - وقال ارسوا - فتوكل على الله الملك على الحق المبين - وقال - وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا - وقال - وتوكل على الحي الذي لا يموت ورجح بحمده - وقال - فاذا عجزت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين - وقال عن اوليائه ورسوله - وما لنا الا نتوكل على الله ؟ (١) الآية - وقال عن اصحابه - الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا وقرآنا وحسبنا الله ونعم الوكيل - وقال - انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، ما تذاكرت عاهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون) والقرآن مملوء من ذلك وفي الصحيحين في حديث السبعين الفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب هم الذين لا يسترقون ، ولا يتطهرون ، ولا يكتفون ، وعلى ربهم يتوكلون ، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها ابراهيم صلى الله عليه وسلم حين اتى في النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له (ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) وفي الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول «اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وابليك انبت ، وبك خاصمت اللهم اعوذ بعزتك ، لا اله الا انت ان تضلني ، انت الحي الذي لا تموت ، والجن والانس يموتون » وفي الترمذي عن عمر رضي الله عنه مرفوعا « او انكم تتوكلون على الله حتى توكله ليرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خصاصا وتروح بطانا » وفي السنن عن انس رضي الله عنه

* تروى من الجزء الثاني من كتاب (مدارج السالكين . بين منازل «اياك نعبد وإياك نستعين» لابن القيم (١) زاد في البندادية من الآية قوله تعالى «وقد هدانا سبينا»

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال - يعني اذا خرج من بيته - بسم الله توكلت على الله ، ولا حول (١) ولا قوة الا بالله ، يقال له : هديت ووقيت (٢) وكفيت ، فيقول الشيطان لشيطان آخر : كيف لك برجل هدي وكفي ووقى ؟ »
التوكل نصف الدين ، ونصفه الثاني الاقامة ، فان الدين استمانة وعبادة ، فالتوكل هو الاستمانة ، والاقامة هي العبادة ، ومنزلة أوسع المنازل وأجمعها ، ولا تزال معصومة بالتأويلين لسمة تماثل التوكل ، وكثرة حوائج العالمين ، وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار والابرار والنجار ، والطيور والوحش والبهائم ، فأهل السموات والارض - المكافون وغيرهم - في مقام التوكل ، وان تباين متعلق وكلهم . فاولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في حصول ما يرضيه منهم ، وفي اقامته في الخلق ، فيتوكلون عليه في الايمان ونصرة دينه ، واعلاء كلمته ، وجهاد اعدائه ، وفي محابه وتنفيذ اوامره . (ودون هؤلاء) من يتوكل عليه في استقامته في نفسه ، وحفظ حاله مع الله فارغا عن الناس . (ودون هؤلاء) من يتوكل عليه في معلوم يناله منه من رزق او عافية او نصر على عدو او زوجة او ولد ، ونحو ذلك . (ودون هؤلاء) من يتوكل عليه في حصول الاثم والفواحش . فان اصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبا الا باستماتتهم بالله ، وتوكلهم عليه ، بل قد يكون توكلهم (٣) أقوى من توكل كثير من اصحاب الطاعات ، ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك معتمدين على الله ان يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم ، فأفضل التوكل في الواجب (اعني واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس) ، واوسعها وانفعها التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية ، او في دفع مفسدة دينية ، وهو توكل الانبياء في اقامة دين الله ، ودفع فساد المفسدين في الارض ، وهذا توكل ورثتهم

ثم الناس بعد في التوكل على حسب همهم ومقاصدهم ، فمن متوكل على الله في حصول المالك ، ومتوكل في حصول رغبة . ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله ، فان كان محبوبا له مرضيا كانت له فيه العاقبة المحمودة ، وان كان

(١) في نسخة « ولا حول » وفي البندادبة سقط الواو (٢) وفيها « وكفيت ووقيت »

(٣) في الحجازية « توكلهم عليه »

مسخوطا ميفوضا كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه ، وان كان مباحا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه ، ان لم يستعن به على طاعة (١) والله اعلم .

فصل

فلنذكر معنى التوكل ودرجاته وما قيل فيه .

قال الامام احمد : التوكل عمل القلب . ومعنى ذلك انه عمل قلبي ليس بقول اللسان ، ولا عمل الجوارح ، ولا هو من باب العلوم والادراكات . (ومن) الناس من يجمله من باب المعارف والعلوم فيقول : هو ندم القلب بكفاية الرب للعبد . (ومنهم) من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب . فيقول : التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب ، كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقبله كيف يشاء ، وهو ترك الاختيار ، والاسترسال مع مجاري الاقدار . قال سهل : التوكل الاسترسال مع الله على ما يريد . (ومنهم) من يفسره بالرضا . فيقول : هو الرضا بما تقدر . قال بشر الخافي : يقول احدهم : توكلت على الله ، يكذب على الله ، او توكل على الله رضي بما يبدل الله . ومثل يحيى بن معاذ : متى يكون الرجل متوكلا ؟ فقال اذا رضي بالله وكلا (ومنهم) من يفسره بالتمتع بالله ، والطمأنينة اليه والسكون اليه . قال ابن عطاء : التوكل ان لا يظهر فيك ازعاج الى الاسباب مع شدة فاقك اليها ، ولا تنال (٢) على حقيقة السكون الى الحق مع وقوفك عليها . وقال ذو النون : هو ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة ، وانما يقوى العبد على التوكل اذا علم ان الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه . وقال بعضهم : التوكل التعلق بالله في كل حال . وقيل : التوكل ان ترد عليك موارد الفاقات ، فلا تسو الا الى من اليه الكفايات . وقيل : نفي الشكوك ، والتفويض الى مالك الملوك . وقال ذو النون : خلع الارباب ، وقطع الاسباب - يريد قطعها من تعلق القلب بها ، لا من ملازمة الجوارح لها .

(ومنهم) من جملة من كتب من امرين او امور . فقال ابو سعيد الخزاز :

(١) في البداية طاعته (٢) في البداية - ولا تزول

التوكل اضطراب بلاسكون ، وسكون بلا اضطراب ، — يريد حركة ذاته في الاسباب بالظاهر والباطن — وسكون الى المسبب وركون اليه ، ولا يضطرب قلبه معه ، ولا تسكن حركته عن الاسباب الموصلة الى رضاه . وقال ابو تراب النخعي : هو طرح البدن في اليهودية ، وتملق القلب بالربوبية ، والطمأنينة الى الكفاية . فان اعطي شكر ، وان منم صبر . فجمله مركبا من خمسة امور : اقيام بهركات اليهودية ، وتملق القلب تدبير الرب ، وسكونه الى قضائه وقدره ، وطمأنينته بكفايته له ، وشكره اذا اعطي ، وصبره اذا منم . قال ابو يعقوب النهرجوري : التوكل على الله بكامل الحقيقة كما وتم لابراهيم الخليل عليه السلام في الوقت الذي قال لغيريل عليه السلام « اما اليك فلا ، لانه غائب عن نفسه بالله (١) » لم ير مع الله غير الله .

واجمع اقوم على ان التوكل لا ينافي القيام بالاسباب ، فلا يصح التوكل الا مع القيام بها . والا فهو بطالة وتوكل فاسد . قال سهل بن عبد الله : من طمن في الحركة فقد طمن في السنة ، ومن طمن في التوكل فقد طمن في الايمان ، فالتوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم ، والكسب سته ، فمن عمل على حاله فلا يتركن سته . وهذا معنى قول ابي سعيد « هو اضطراب بلاسكون ، وسكون بلا اضطراب » وقول سهل ابن ابراهيم وارفع . وقيل : التوكل قطع علائق القلب بغير الله . وسئل سهل عن التوكل فقال : قلب عاش مع الله بلا علاقة . (٢) وقيل : التوكل هجر العلائق ، ومواصلة الحقائق . وقيل : التوكل ان يستوي عندك الاكثار والاقلال . وهذا من وجباته وآثاره ، لانه (٣) حقيقته . وقيل : هو ترك كل سبب يوصلك الى مسبب ، حتى يكون الحق هو المتولي لذلك . وهذا صحيح من وجه ، باطل من وجه ، فترك الاسباب المأمور بها قاذح في التوكل ، وقد تولى الحق اتصال العبد بها . وأما ترك الاسباب المباحة ، فان تركها لما هو أرجح منها . صامخا فمدوح ، والا فهو

(١) في البغدادية — لانه علق نفسه بالله — (٢) هانان الفقير فان سقطنا من نسختنا فأبتاهما من البغدادية (٣) وفيها — لانه —

مذموم . وقيل : هو إلقاء النفس في العبودية ، وإخراجها من الربوبية . يريد استرسالها مع الامر ، وبرأتها من حولها وقوتها ، وشهود ذلك بها ، بل بالرب وحده .
(ومنهم) من قال : التوكل هو التسليم لامر الرب وقضائه (ومنهم) من قال : هو التفويض اليه في كل حال .

(ومنهم) من جعل التوكل بداية ، والتسليم وساطة ، والتفويض نهاية . قال ابو علي الدقاق : التوكل ثلاث درجات - التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض . فالتوكل يسكن الى وعده ، وصاحب التسليم يكتبني بملحه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . فالتوكل بداية ، والتسليم وساطة ، والتفويض نهاية فالتوكل صفة المؤمن ، والتسليم صفة الاولياء ، والتفويض صفة الموحدين . التوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخوارج ، والتفويض صفة الخاصة . التوكل صفة الانبياء ، والتسليم صفة ابراهيم الخليل ، والتفويض صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين . هذا كله كلام الدقاق . ومعنى هذا التوكل اعتماد على الوكيل ، وقد يعتمد الرجل على وكيله مع نوع اقتراح عليه ، واردة وشائبة منازعة ، فاذا سلم اليه زال عنه ذلك ، ورضي بما يفعله وكيله . وحال المفوض فرق هذا ، فانه طالب يريد ممن فوض اليه ، ما تمس منه ان يتولى أموره ، فهو رضا واختيار ، وتسليم واعتماد ، فالتوكل يندرج في التسليم . وهو التسليم يندرجان في التفويض ، والله سبحانه وتعالى اعلم .

فصل

وحقيقة الامر أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور لا تتم حقيقة التوكل الا بها . وكل اشار الى واحد من هذه الامور ، او اثنين او اكثر . فأول ذلك معرفة بالرب وصفاته ، من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الامور الى علمه ، وصدورها عن مشيئته وقدرته . وهذه المعرفة اول درجة يضم بها العبد قدمه في مقام التوكل . قال شيخنا رضي الله عنه : ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ، ولا من القدسية النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء (١) ولا

(١) في البعدانية « ما لم يشأ »

يستقيم أيضا من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله ، ولا يستقيم التوكل الا من اهل الاثبات . فأبي توكل لمن يعتقد أن الله لا يمل جزئيات العالم ؟ ولا هو فاعل باختياره ؟ ولا له ارادة ومشية ؟ ولا يقوم به صفة ؟ فكل من كان بالله وصفاته أعلم واعرف ، كان توكله اصح واقوى . والله سبحانه وتعالى أعلم .

فصل

(الدرجة الثانية اثبات في الاسباب والمسببات) فان من نفاها فتوكله مدخول . وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي ان الاسباب يقدر في التوكل ، وأن نفيها كمال (١) التوكل

فان لم ان نفاة الاسباب لا يستقيم لم توكل البتة ، لان التوكل من اقوى الاسباب في حصول التوكل فيه ، فهو كالدعاء الذي جعله الله سببا في حصول المدعو به فاذا اعتقد العبد ان توكله لم ينصبه الله سببا ، ولا جعل دعاءه سببا لنيل شيء ، فان التوكل فيه المدعو بمحصله ان كان قدر (٢) حصل توكل او لم يتوكل ، دعا او لم يدع . وان لم يقدر لم يحصل ، توكل ايضا او ترك التوكل . وصرح هؤلاء ان التوكل والدعاء عبودية محضة لا فائدة لها الا ذلك ، ولو ترك العبد التوكل والدعاء ما فاته (٣) شيء مما قدر له . ومن غلاتهم من يجعل الدعاء بدم المواخذة على الخطأ والنسيان عديم الفائدة ، اذ هو مضمون الحصول .

ورأيت بعض متعقبي هؤلاء في كتاب له (٤) لا يجوز الدعاء بهذا ، وإنما يجزئه تلاوة لادعاء . قال — لأن الدعاء به يتضمن الشك في وقوعه ، لأن الداعي بين الخوف والرجاء ، والشك في وقوع ذلك — شك في خبر الله ، فانظر الى ما قاد انكار الاسباب من العظام ، وتحريم الدعاء بما أنى الله على عباده وأوليائه بالدعاء

(١) نص لسختنا — كلام التوكل — وكلام محرف عن كمال بالقلب ، كما هو نص الحجازية ، والبغدادية « تمام التوكل » (٢) في البغدادية « قد قدر » (٣) لسختنا والحجازية « ما فاته » والبغدادية « ما فاته » (٤) نص الحجازية « في كتاب لا » وسقط من البغدادية كلمة « له »

به و بطلبه ، ولم يزل المسلمون من عهد نبيهم صلى الله عليه وسلم الى الآن يدعون به في مقامات الدعاء ، وهو من أفضل الدعوات .

وجواب هذا الوهم الباطل ان يقال : بقي قسم ثالث غير ما ذكرتم من القسمين لم تذكروه ، وهو الواقع . وهو ان يكون قضى بمحصل الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء ، فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب ، وقضى الله بحصوله اذا فعل العبد سببه ، فاذا لم يأت بالسبب امتنع السبب . وهذا كما قضى بحصول الولد اذا جامع الرجل من يجلها ، فاذا لم يجامع لم يخلق منه الولد . وقضى بحصول الشبع اذا أكل ، والري اذا شرب ، فاذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو . وقضى بحصول الملح والوصول الى مكة اذا سافر وركب الطريق ، فاذا جلس (١) في بيته لم يصل الى مكة (١) وقضى بدخول الجنة اذا أسلم وأتى بالاعمال الصالحة ، فاذا ترك الاسلام لم يدخلها أبدا (٢) وقضى بانصاج الطعام بإيقاد النار تحته . وقضى بطوارع الجيوب التي تزرع بشق الارض وإلقاء البذر فيها ، فالجأت (٣) بذلك لم يحصل الا انطية . فوزان ما قاله منكرو الاسباب ان يترك كل من هؤلاء السبب الموصل ، ويقول : ان كان قضى لي وسبق في الازل حصول الولد والشبع والري والمهج ونحوها ، فلا بد ان يصل ، ان تحركت أو سكنت ، تزوجت أو تركت ، سافرت أو قدمت ، وان لم يكن قضى لي لم يحصل لي ايضا ، فقلت أو تركت . فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء ؟ وهل البهائم الا الله منه ؟ فان البهيمة تسعى في السبب بالهداية العامة . فالتوكل من أنظم الاسباب التي يحصل بها المطوب ، ويندفع بها المكروه . فمن أنكر الاسباب لم يستقم منه التوكل ، ولكن من تمام التوكل عدم الركون الى الاسباب ، وقطاع علاقة القلب بها ، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها ، وحال بدنه قيامه بها . فالاسباب محل حكمة الله وأمره ودينه ، والتوكل متعلق بربوبية وقضائه وقدره ، فلا تقوم عبودية الاسباب الا على ساق التوكل ، ولا تقوم ساق التوكل الا على قدم العبودية ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) في البندادية « فاذا جلس في بيته لم يصل الى مكة أبدا » (٢) حذف

من البندادية لفظ « أبدا » (٣) نص البندادية فان لم « يأت »

فصل

الدرجة الثالثة (رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل) (١) فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصبح له توحيد ، بل حتمية التوكل توحيد القلب ، فما دامت فيه علاقة الشرك فتوكله معلول مدخول ، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل ، فإن العبد متى التفت الى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعبة قلبه ، فتمس من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ، ومن هاهنا ظن من ظن ان التوكل لا يصح الا برفض الاسباب ، وهذا حق ، لكن رفضها عن القلب لاغن الجوارح ، فتوكل لا يتم الا برفض الاسباب عن القلب ، وتلق الجوارح بها ، فيكون منقطعاً منها متعملاً بها . والله سبحانه أعلم .

﴿ فصل ﴾

الدرجة الرابعة (اعتماد القلب على الله ، واستناده اليه ، وسكونه اليه) بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الاسباب ، ولا سكون اليها ، بل يخضع السكون اليها من قلبه ، ويلبسه السكون الى مسببها ، وعلى هذا (٢) انه لا يلبى باقبالها وإدبارها ، ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها واقبال ما يكره ، لان اعتماده على الله وسكونه اليه واستناده اليه ، قد حصنه من خوفها ورجائها ، فحال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به ، فرأى حصناً مفتوحاً فأدخله ربه اليه ، وأغلق عليه باب الحصن ، فهو بشاهد عدوه خارج الحصن ، فاضطراب قلبه وخوفه منهم في هذه الحال لا معنى له . وكذلك من أعطاه مالك درهما فسرق منه ، فقال له الملك : عندي ضمانه لانهم متى جئت لي أعطيتك من خزائني اضعافه . فإذا علم صحة قول الملك ووثق به واطمأن اليه ، وعلم ان خزائنه مليئة بذلك - لم يحزنه فقوته . وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بشدي أمه لا يعرف

(١) نسختنا والحجازية « توحيد التوكل » وسقط من البغدادية كلمة « توحيد »

(٢) نسختنا والحجازية « الى مسببها وعلى هذا » وفي البغدادية « الى مسببها

غيره ، وليس في قلبه التفات الى غيره ، كما قال بعض العارفين : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي اليه الا ندي أمه ، كذلك المتوكل لا يأوي الا الى ربه سبحانه .

﴿ فصل ﴾

الدرجة الخامسة (حسن الظن بالله عز وجل) فملي قدر حسن ظلك بربك (١) ورجائك له يكون توكلك عليه . ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن فقال : التوكل حسن الظن بالله . والتحقق ان حسن الظن به يدعو الى التوكل عليه ، اذ لا يتصور التوكل على من ساء (٢) ظلك به ، ولا التوكل على من لا نرجوه ، والله أعلم .

﴿ فصل ﴾

الدرجة السادسة (استسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلها اليه ، وقطم منازلته) وبهذا فسر من قال : ان يكون العبد بين يدي الله كالبيت بين يدي الغاسل يتقبه كيف أراد ، لا يكون له حركة ولا تدبير . وهذا معنى قول بعضهم : التوكل اسقاط التدبير . يعني الاستسلام لتدبير الرب لك . وهذا في غير باب الامر والنهي بل فيما يفعله بك لا فيما أمرك بفعله . فلا استسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده واتقياده له ، وترك منازعات نفسه واراتها مع سيده . والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ فصل ﴾

الدرجة السابعة (التفويض) وهو روح التوكل وابه وحقيقته ، وهو إلقاء امره كلها الى الله ، وانزالها به طلباً واختياراً ، لا كرها واضطراراً ، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب أمور (٣) الى ابيه العالم بشقيقته عليه ورحمته ، وتام كفايته ، وحسن ولايته له ، وتدبيره له ، فهو يرى ان تدبيره له خير من تدبيره نفسه ، وقيامه بمصالحه وتوليها ، وخير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليها ، فلا يجد له أصلح ولا أوفق من تفويضه أمور كلها الى ابيه ، وراحته من حمل كلها (٤) رثقل حملها ، مع عجزه عنها ، وجهله بوجوه المصالح فيها ، وعلمه بكمال علم من فوض اليه وقدرته وشقيقته .

(١) في البعدادية « به (٢) في البعدادية « على من تسيء » (٣) كذا في نسخة
وفي البعدادية ، وفي الحجازية قبل كلمة « أمور خربوشة يوشك ان يكون اصلها « في »
هو « على » فتكون العبارة « المطلوب على امره » وهي الصواب (٤) في البعدادية « كلها »